ثم يقول تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ[(1)] وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله ؛ لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك في ذلك الشيء ، فأنت لا تُوكّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بإله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصفات ، فالله غنيٌّ وأنت غني ، لكن غِنَى الله ذاتيٌّ وغِنَاك موهوب ، يمكن أنْ يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد مِنْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه ، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن

---

(١) قوله تعالى ﴿ وَمَن فِيهِنَّ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] . قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٩٤) : « يريد الملائكة والإنس والجن . ثم عَمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

يخلق الخلق ؛ لأنه خالق قبل أن يَخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً ؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملَكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخلْق .

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة فى القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) فى أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ① ﴾ [الإسراء]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد]

بصيغة الماضى ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السموات والأرض ، وهى خَلْق سابق للإنسان .

ثم يأتى بلفظ : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ.. ① ﴾ [الجمعة]

بصيغة المضارع ؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس فى الماضى ، بل ومستمر فى المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته فى السموات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① ﴾ [الأعلى]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : ما من شىء ، كل ما يُقال له شىء . والشىء : هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسبِّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط ؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلٌّ بلُغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقىّ ذاتىّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٩٩٦/٥) : « الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأىّ تخصيص لداود (يقصد قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]) . وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء ، فالقول به أوْلَى . والله أعلم » . وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إذن : كل شيء في الوجود علم كيف يُصلِّى لله ، وكيف يُسبِّح لله ، وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَم في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وها هم الناس أنفسهم ولهم في الأداء القوليّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزي - مع أنه يتكلم بالفاظ العربي - ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلَّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه في مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان في حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهي المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزي مثلاً ، ووضعتَه في بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ .. ﴿١٨﴾﴾ [البقرة]

فهم بُكْم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن ؛ بالسماع انتقلتْ اللغة ، كُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التى يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلى آدم ـ عليه السلام ـ وهنا يأتى السؤال : وممَّنْ سمع آدم اللغة التى تكلم بها ؟

وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١)﴾ [البقرة]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربى بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هى اللغة ، كما حدث مع أبى علقمة النحوى ، وكان يتقعَّر فى كلامه ويأتى بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذى ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَى أنه فى ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه : (أصقَعَت[1] العَتَارِيفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً : (زقْفَيْلَم) . وكانت المرة الأولى التى يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة ، فقال : يا بنى وما (زقْفَيْلَم) ؟ قال : وما (صقعت العتاريف) ؟ قال : أردتُ : أصاحت الديكة ؟ فقال الغلام : وأنا أردتُ لم تَصِحْ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ؟ ألم يكْفنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات ، وإنْ كنا لا نفهمها ؛ لأننا نعتقد أن اللغة هى النطق باللسان فقط ، ولكن اللغة أوسع من ذلك .

فهناك ـ مثلاً ـ لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

---

(١) صَقْع الديك : صوته . وقد صقع الديك : صاح . والعُتْرفان : الديك . [لسان العرب ـ مادة : صقع ، عترف] فمعنى : أصقعت العتاريف : أى : أصاحت الديكة .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هى استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفى أن ينظرَ إليه سيِّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجِّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

فالجبال تُسبِّح مع داود ، وتُسبِّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسبِّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما فى أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفَهِمتْ عنه .

وكذلك النملة التى تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسَّم ضاحكاً من قولها . وقد علَّمه الله منطقَ الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسبِّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبِّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه ، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو علَم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]

ومع ما عندهم من إلْف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمِّيَ ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرأ على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذى لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به ؛ ذلك لأنهم فى كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب فى نفسه مثل هذه التسمية .

وفى مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحنى خضوعاً لغيره ؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيلَ له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً فى الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ ، وأخبر الهدهد عنهم بقوله :

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [النمل]

ألسْنَا نرى إنساناً يتقرّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله ؟ ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصر سيده ، ويُوقّع فى سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية فى شىء متميز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرّب لآخر بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحانية وهذا التنزيه فى ذاته سبحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمّى باسمه .

وفى العبادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنا أن يقول واحد للآخر : أنا سأتقرّب إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ، إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعى صومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرّب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[(١)] .

يعنى من الممكن أن يتقرب بأىّ ركن من أركان الإسلام لغيرى ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحانية هى الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخَلْق ؛ لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تأبَّيْتَ على الإيمان بالله ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢/٨٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

وللعاصي : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمْتُم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبِّي وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصي حينما ينحرف عن الجادّة ، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدِّي على المال العام ، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام ، وربما أخذت في طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :

« من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر »[1] .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا مَنْ أطلعه الله عليه ، فإذا مَنَّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان ـ عليه السلام ـ شاكراً هذه النعمة : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل] فقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٣١٣/٢) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقي السبكي : لا يصح .

(٢) أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحبِّبه إليّ . [القاموس القويم ٣٣٤/٢] .

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

لأن الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأناب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلولا أنْ يتداركَ الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج]

فها هى جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتُسبّح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا فى الإنسان السيّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذى يشذُّ عن منظومة التسبيح فى الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذى ميَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقى المخلوقات فهى مُسخّرة مقهورة ، فإنْ قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فأثبتَّ بذلك صفة المحبوبية .

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصى الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركَّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضَّلَتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضَّل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وفي رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرأ عليك وقت الأداء مَا يحول بينك وبين أداء الأمانة .

والأمانة كما هو معروف لا تُوثَّق ولا تُكتب ، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب ؛ لأنها لا تثبتُ إلا بذمّة الآخذ الذى قد يضعف عن الأداء وتُلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال .

فالإنسان ـ إذن ـ لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإنْ كان يضمنها وقت التحمُّل ، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيَّرة ، أما الإنسان فقال : لى عقل وأستطيع التصرُّف والترجيح بين البدائل ، فكان بذلك ظالماً لنفسه ؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء ، وجهولاً بما يكون من تغيُّر أحواله .

فالكون ـ إذن ـ ليس مقهوراً رَغْماً عنه ، بل بإرادته واختياره ، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغْماً عنه ، بل بإرداته واختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى ، ويصنع أحداثاً أوّلية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها . وكفار مكة ما ادَّخروا وُسْعاً ، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله ﷺ والتنكيل به إلا فعلوها .

ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله ، ولم تُثبِّط من عزيمته ، لماذا ؟ لأنه كان مُتوقِّعاً لكل هذا الإيذاء ، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد .

فالمسألة لم تُفاجىء رسول الله ؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث ، فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى فى الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة فَزِعاً ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه بأن هذا هو الناموس الإلهى ، وأنه ﷺ سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه نبيٌّ هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتنى أكون حياً حين يُخرجك قومك ، فقال ﷺ : « أَمُخرجيّ هم ؟ »[(١)] .

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حَصَّن رسوله ﷺ ضد ما سيأتى من أحداث ؛ لكى يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التى ربما ولدتْ الانهيار ، وأعطاه الطُّعْم المناسب للداء قبل حدوثه ؛ لتكون لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت فى نصر الله له مهما ادْلهمتْ الخطوب ، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه .

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس لهم إلا الدنيا ، هى فرصتهم الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنْ أجَّل المؤمن بعض مُتَعه وشهواته انتظاراً لما فى الآخرة فلِامَ يؤجل الكفار مُتعتهم ؟

إذن : الذى يجعل هؤلاء يتهافتون على شهواتهم فى الدنيا أنهم غير مؤمنين بالآخرة .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٣٩/٢ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٣٨/١) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتنسجم مع الكون ، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ، لابُدَّ أنْ يُصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها فى ذات الرسول وفى منهجه ، فى ذاته بالإيذاء ، وفى دعوته ومنهجه بصَرْف الناس عنه ، ألم يقل الكفار لمن يَرَوْنَ عنده مَيْلاً للإسلام : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]

وقولهم : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] شهادة منهم بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما قالوا هذا القول .

وقولهم : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] أى : هرِّجوا وشَوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى آذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق رسول الله وصدق دعوته ، وقد دَلَّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندن بآيات القرآن كان صناديد الكفر فى مكة يتعمدون سماع القرآن ، والتلذُّذ بروعته وبلاغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) ، أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وتكرر هذا ثلاث ليال .

يُرْوَى[1] أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروْا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيظهم .

وكأن الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أنْ بيَّتوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقول له : اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذى جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون إليك ، هو الذى سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خَوْفاً ، بل خرج وهو يقول « شاهت الوجوه »[2] وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك : يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين فى نصره وتأييده .

وقوله : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء]

الحجاب : هو المانع من الإدراك ، فإنْ كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإنْ كان للأذن فهو مانع للسمع .

---

(١) قال الزجاج فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٩٨) : « نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم : أبو جهل ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرون به ولا يرونه .

(٢) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (١/٣٦٨) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

وكلمة ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ اسم مفعول من الستر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (ساتراً) ، وهذا من قبيل المبالغة فى الستر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذى يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالُكَ بما خلفه ؟

ولا شكَّ أن الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادى ، لكن هذا الحجاب الذى يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنوىّ ولا يراه أحد ، كما فى قوله تعالى : ﴿رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ② ﴾[الرعد]

فلو قال : بغير عمد وسكت فقد نفى وجود عَمَد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ④١ ﴾ [فاطر] فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَد تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تجعل المعنى صالحاً لأنْ نقول بغير عَمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تحملها ، أو نقول : إن لها عمداً لكنَّا لا نراها ، فهى عَمَد معنويةٌ ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عَمد المسلح أو الرخام أو الحديد .

وفى هذا ما يدُكُّ الغرور فى الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له فى إدراكه ، وأن حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقـدرة الإلهية هى التى تُسيِّـر هذا الكون ، وتأمر كل شىء بأن يُؤدِّى مهمته فى الحيـاة ، وإنْ شاء عطَّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحـدة ، بأن جعـل فيه الـنواميس والقـوانين ، وهى التى تحكم العالم وتُسيِّره .

ففـى قصة مـوسى ـ عليه الـسلام ـ أنه سار بـجيشـه ، يطارده فرعـون وجنوده حتى وصـل إلى شاطىء البـحر فأصـبح البحـر من أمـامـه ، وفـرعـون من خلفـه حـتى قـال أصـحـاب مـوسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء]

فأين المفر ، وها هو البـحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقى مع واقع الحدث البشـرى ، لكن الأمر يختلف عند موسى ـ عليـه السـلام ـ فـقـال بملء فـيـه : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

فهل قالهـا موسى برصيد بشرى ؟ لا ، بل بـما عنده من ثقة فى ربه ، وهكذا انتقلت المـسألة إلى ساحة الخالق سـبحانه ، فقـال لنبيه موسى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطراقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحـر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحيـة الأخرى ، وتنشرح صدورهم بـفرحة النجاة ، ويأخـذ موسى ـ عليـه السلام ـ عصاه ليضرب البـحـر ليعـود إلى طبيعته ، وحـتى

لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فعندما نزل فرعون وجنوده البحر واكتمل عددهم في قاعه أطلق الخالق سبحانه للماء قانون سيولته ، فأطبق على فرعون وجنوده ، وكانت آيةً من آيات الله ، شاهدة على قدرته سبحانه ، وأنه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشيء الواحد ، وشاهدة على قيوميته تعالى على خَلْقه ، فليس الأمر - كما يقولون - أمر قانون أو ناموس يعمل ، ويدير حركة الكون ، فكل المعجزات التي مرَّتْ في تاريخ البشرية جاءت من باب خرق النواميس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[2] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[3] وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾

ومعنى ﴿ أكنة ﴾ جمع كِنَان ، وهو الغطاء ، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التي غُلِّفَتْ قلوبهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت]

الكون كله خَلْق الله ، والإنسان سيد هذا الكون ، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه ، حتى وإنْ

---

(١) أي : اترك البحر ساكناً ليغتروا فينزلوا فيه . [القاموس القويم ١/٢٧٩] .

(٢) الأكنة : الأغطية . مفرده : كِنان [لسان العرب - مادة : كنن] .

(٣) الوقر : ثِقَل في السمع ، وقيل : هو أن يذهب السمع كله [لسان العرب - مادة : وقر] .

كان كافراً لا يزال يتقلّب فى عطاء الربوبية ، فلا يُحرم منها كافر بكفره ولا عاص بمعصيته ، بل كما قال تعالى : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاَءِ وَهَـٰؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠) ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ فرَّقنا بين عطاء الربوبية المتمثّل فى كل نِعَم الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذى يقتضى عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمُّل فى هذه النعم التى تُساق إليه دون سَعْى منه أو مجهود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قدرة عليها ؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التى أجراها الله تعالى من أجله ، وسخَّرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً للاستدلال على الخالق سبحانه بما أودعه فى الكون من ظواهر وآيات بالرجل الذى انقطعت به السُّبُل فى صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهى من الطعام والشراب ، ألاَ تثير فى نفسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتدَّ إليها يده ؟

وكذلك الكافر الذى يتقلّب فى نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وقد طرأ على الكون فوجده مُعداً لاستقباله مُهَيئاً لمعيشته ، فكان عليه أنْ يُجرى عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعِم .

والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عَمَّنْ كفر ، بل إن

الكافر حين يتمكّن الكفر منه ويُغلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد ، ويزيده مما يحب ، كما قال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. ⦗١٠⦘﴾ [البقرة]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. ⦗٤٦⦘﴾ [الإسراء] لم تَأْتِ من الله ابتداءً ، بل لما أحبُّوا هم الكفر ، وقالوا عن أنفسهم : قلوبنا فى أكنة ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فَلْنُزدهم منه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ .. ⦗٤٦⦘﴾ [الإسراء]

أى : كراهية أنْ يفقهوه ؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم ، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع ، بل يريد قلوباً تخشع ، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته .

وفى سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⦗٣⦘ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ⦗٤⦘﴾ [الشعراء]

فالأعناق هى الخاضعة وليست القلوب ؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك ، إذن : فالله تعالى يريد القلوب ، يريدها طائعة محبة مختارة ، أما هؤلاء فقد اختاروا الأكنّة على قلوبهم ، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر ، فزادهم الله منه .

ثم يقولُ تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء]

(وَقْراً) أى : صَمَم ، والمراد أنهـم لا يستمعون سماعـاً مفيداً ؛ لأنه مـا فائدة السـمع ؟ واللغـة وسـيلة بين متكـلم ومخـاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحـقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى منْ سمعه وكان به صَمَماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء]

لمـاذا ولوا على أدبارهم نـفوراً ؟ لأنـك أتيتَ لهم بمـا يُخـوِّفـهم ويُزعـجهم ، وبالله لو أن قـضيـةَ الإيمان ليـست فطرية موجـودة فى الذات وفى ذرّات التكوين ، أكـان هؤلاء يخافون من ذكـر الله ؟ فَمِـمَّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع ، وانقهار الفطرة التى يعتريهـا غفلة ، فإذا ذُكِر الله تعالى أمامـهم ، فإذا بهم يُولُّون مدبرين فى خَوْفٍ ونُفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

الحق سـبحـانه وتعالى لا يَـخْفى عليـه شىء فى الأرض ولا فى السمـاء ، وهذه حقيقـة كان على الكفار أنْ ينتـبهوا إليهـا ويُراعوهـا ، ويأخذوهـا سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا فى أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذى لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه ؟ ألاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور فى نفوسهم إلى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شيء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه : **الأول** : يستمعون إليك . **والثانى** : وإذ هم نجوى . **والثالث** : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان ؛ لذلك كانت معجزة النبى ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح فى التحدى ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفى مكة تصب كل الألسنة فى مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التى يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا فى وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا

مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما فى طباعهم من ملَكات عربية .

فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبى سفيان ، وأبى لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس ـ ممن كانوا يقولون لهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ـ كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن[1] .

فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : بالحال الذى يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] من التناجى وهو الكلام سراً ، أو : أن نَجْوى جمع نجى ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .

فالمعنى : نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناجٍ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] فيه مبالغة ، كما تقول : رجل عادل ، ورجل عَدْل . ومِنْ تناجيهم ما قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[3] .

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق . [لسان العرب ـ مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٠) .

ثم تأتى الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧)﴾ [الإسراء]

وهذا هو القول المعلَن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن . وهذا كله إفلاس فى الحجة ، ودليل على غبائهم العقدىّ .

وكلمة (مَسْحُوراً) اسم مفعول من السحر ، وهى تخييل الفعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهى صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهى ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من جنس السحر وليست سحْراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حَيَّة تبتلع حبال السحرة وعصيّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة فى مجال السحر ظنها الناسُ سحْراً ؛ لأن القرآن قال فى سحرة فرعون : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦)﴾ [الأعراف] وقال فى آية أخرى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى ـ عليه السلام ـ وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأنّ ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتغفيلهم أنه حينما قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه]

فأطال موسى ـ عليه السلام ـ الكلام ؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام

مع ربه تعالى فأجاب : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ(١) بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ [طه] ثم أحس موسى أنه أطال فقال موجزاً : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

فهذا هو مدى علمه عن العصا التي في يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهي عصا ؟ أم أنها انقلبت حيَّة فعلاً ؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيَّة حقيقية ، ثم طمأنه ربه : ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً ، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء]

أي : سحره غيره . وهذا قول الظالمين الذين يُلفِّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضاً : ساحر . قال تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس]

---

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ [طه] أي : أسقط بعصاي أوراق الشجر على غنمي لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٢] .

فمـرَّة قُلْتم : ساحر . ومرة قلتـم : مسحور . وهذا دليل التـخبُّط واللَّجج ، فـإن كان سـاحـراً فعندكم من السـحـرة كثـيرون ، فلمـاذا لا يُواجِهونه بسحـر مثل سِحْره ؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كـما سحر غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر ؟

وإنْ كان مـسحوراً سـحره غـيره ، فهل جـرَّبْتُم عليه فى سـحره كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن : فهـذا اتهام باطل وقـول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيـتم عليه ، ولم يُصبكُم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبـوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ، وبالله أمثُلُكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان ـ يَخْفى عليه أن يُفرِّق بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمـان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قـرأت مثـلاً فى كـتب الأدب تجد الكـاتب يقول : هذا العـدل محمود عواقبه ، وهذه النُّـبْوة غُمَّة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سـيبـه ، أو تأخـر غيـر ضنين غناؤه ، فـأبطأ الدِّلاَء فَـيْضـاً أحفلُهـا ، وأثقل السحائب مَـشْياً أحـفلها ، ومع اليـوم غد ، ولكلٍّ أجل كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإنْ يكن الفِعْلُ الذى ساءَ وَاحِداً فأفْعالُه اللاَّئِى سرَرْنَ أُلُوفُ